الفيوم

لقد كانت الفيوم طوال عصور التاريخ محط رعاية الفراعنة والبطالسة والرومان وملوك المسلمين الذين حكموا مصر فجعلها الفراعنة فى عهد الدولة القديمة بستاناً لنزهتهم ومراحاً لصيدهم وجففوا أرضها وزرعوها فربت وأينعت وفاضت على البلاد سمناً وعسلا فشاد بذكرها من زارها من الكتاب الأقدمين فوصفها هيرودوط أبو التاريخ الذى زار مصر فى سنة ٤٥٤ قبل الميلاد إبان حكم الفرس وذكر محاسنها وخيراتها وعاصمتها كركوديلو پوليس أى مدينة التماسيح ووصف بحيرة موريس وما حولها من الأهرام والتماثيل زاعماً أنها كانت كافية لتخزين مياه الفيضان الزائدة فتقى البلاد من الغرق وعند نزول الفيضان ترتد المياه منها إلى مجرى النيل بواسطة ترعة تستخدم فى الرى .

وقال ديودور الصقلى سنة ٢٥ قبل الميلاد إن إقليم أرسينوى (وهو مديرية الفيوم) أحسن مديريات مصر منظراً وترتيباً وفيه تزرع أشجار الزيتون فتغل محصولا عظيما ؛ ويصنع من أعنابها النبيذ بكثرة عظيمة ويزرع فيها القمح وغيره من الحبوب ، ووصف عجائب بحيرة موريس .

وتكلم عن الفيوم سطرابون وهو معاصر لديودور فقال إن بحيرة موريس سميت باسم الفرعون الذى حفرها ؛ وأنه عندما تم له ذلك أقام فى وسطها قبراً وهرمين عظيمين أحدهما له والآخر لزوجته لتخليد اسميهما . ثم قال إن هذا الفرعون قد وهب إيراد مصايد الأسماك فى البحيرة لزوجته لتنفق منها على الدهون والعطور التى تستخدمها فى زينتها . وكانت البحيرة فى زمنه غنية بالأسماك إذ كان بها اثنان وعشرون نوعاً من السمك .

وتكلم بلينيوس الرومانى بعد ذلك عن الفيوم فقال إن محيط بحيرتها العظيمة كان ٢٥٠ ميلا رومانياً وأنها تبعد عن مدينة ممفيس حاضرة مصر سبعين ميلا

كتب هذا الموضوع حضرة الزميل المحترم الدكتور مأمون عبد السلام وكيل قسم أمراض النباتات بوزارة الزراعة وذلك مناسبة الزيارة الملكية لأقليم الفيوم لافتتاح بعض المنشآت ولغرس أول شجرة شركة نقابة بركة فاروق بكوم أوشيم مركز سنورس .

وقد عنى كتاب العرب بأمر الفيوم فأسهب فى وصفها النابلسى الصفدى الشافعى سنة ٦٤٢ هـ وتكلم عنها أبو إسحاق بن جعفر المتوفى سنة ١٠٣١ م وذكرها المقريزى وغيره من كتاب العرب .

وقد زارها علماء الحملة الفرنسية سنة ١٨٠٠ واهتم بأمرها رءوس العائلة المالكة العلوية فحباها بعنايته محمد على الكبير و إسماعيل العظيم والملك فؤاد الأول رحمهم الله أجمعين وأسكنهم جنات الفردوس والنعيم ، وها قد نالها الشرف العظيم بزيارة مولانا الملك الصالح فاروق الأول ملك مصر والسودان الذى أعاد إلى الذكرى زيارة من سبقه من ملوك المسلمين ألا وهو الملك الصالح أيوب الذى حل ركابه السامى بها فى عام ٦٤١ هـ لينظر فى أحوالها بغية إصلاحها .

وقد وضعت كثير من المؤلفات فى الفيوم باللغات العربية والأفرنجية أخص بالذكر منها ما ألفه النابلسى الصفدى والمقريزى والمستر بيدنل والماجور براون وعلى بك الشافعى فقد أدوا بعملهم أجل خدمة للعلم فلهم من الله خير الجزاء ومنا كل الشكر والثناء .

وتسمى الفيوم بحق « كنز أوراق البردى » لما عثر عليه منها فى آثار هذا الأقليم كأجزاء من إلياذة هوميروس والأوديسى وكثير من الروايات القديمة وأوراق علمية قيمة وأجزاء من قوانين الزواج وشهادات للميلاد والوفاة وأمر قبض مرسل إلى شرطة سنورس وحسابات وصكوك ووصولات وغير ذلك .

تسمية الفيوم : يزعم عامة الفيوم ، ويجاريهم فى ذلك كتاب العرب ، أن اسم الفيوم مشتق من كلمتين ألف ويوم . ولهم فى ذلك قصص هى الخيال بعينه فمنها أن حاشية فرعون يوسف قد أكلت عقارب الغيرة قلوبهم لما كان ليوسف لدى فرعون من المكانة والشأن فأخذوا يكيدون له كيداً فطلبوا من فرعون أن يرسله إلى الهون وهى بحيرة موريس المكونة لغور الفيوم والتى كان النيل يملؤها بغير ضابط وأن يأمره بتحويلها إلى إقليم يزيد فى إيرادات مصر وهم يقصدون بذلك إظهار عجزه عليه السلام ليغضب عليه الملك فحفر عليه السلام بحر يوسف من

الأشمونين إلى اللاهون ثم حفر ترعة الفيوم والترعة الشرقية وأخرى غربها تسمى ترعة بنى حامد وبذا صرف المياه من الهون ثم جمع العمال وقطع أشجار الطرفة وغيرها من الأشجار التى كانت نامية هناك فلم تأت مياه الفيضان إلا وكانت أرض البركة صالحة للزراعة فأكبر فرعون هذا العمل الجليل وسأل يوسف متعجباً فى كم من الزمن صيرت هذا الإقليم فى الحالة العظيمة التى أصبح فيها . فأجابه يوسف : فى سبعين يوماً . فقال فرعون : لو أن شخصاً آخر عهد إليه بهذا العمل لما أتمه فى أقل من ألف يوم فمن ثم سمى الهون « بالفيوم » .

ويروى النابلسى قولا يقرب من ذلك وهو أن يوسف تضرع إلى الله وسأله المعونة فأعانه بملائكته وهداه إلى عمارتها . ولكن النابلسى يميل إلى عدم الأخذ بهذه الرواية قائلا إنه لو كان هذا الأمر جرى لذكر فى القرآن الكريم معجزة ليوسف عليه السلام .

ويقول آخرون إنه لما ذهب يوسف إلى هون الفيوم لاصلاحه جرى النيل فى أثره وغمر أرض الفيوم فأصلحها فى ألف يوم ، لذلك سمى الهون « الفيوم »

وكل هذه أساطير لا صحة لها والواقع أن اسم الفيوم مصرى قديم مشتق من پايوما (pà-iuma) بمعنى الماء أى البحيرة .

وكان اسم هذا الصقع فى عهد الدولة القديمة « تاش » أى أرض البحيرة واسم مدينة الفيوم « شيد » أى المستخلصة لأن أرضها استخلصت من بحيرة موريس القديمة كما سنوضح ذلك فيما بعد .

وكانت مديرية الفيوم تسمى فى عهد البطالسة « إقليم أرسينوى » نسبة إلى مدينة أرسينوى (مدينة الفيوم الحالية) التى بناها بطليموس فيلاديلفوس وأطلق عليها اسم أخته التى تزوجها .

موقع الفيوم وطبيعته والوديان المتصلة به : الفيوم عبارة عن غور أى منخفض فى الصحراء الغربية المصرية مساحته حوالى اثنى عشر ألف كيلو متر مربع ويقع فى الجنوب الغربى لمدينة القاهرة على بعد ستين كيلو متراً كما يطير الطائر

ويتصل بالقاهرة بطريق صحراوى طوله ثمانون كيلو متراً يخترق الصحراء خلف الهرم الأكبر .

ويفصل هذا الغور عن وادى النيل برزخ صحراوى حجرى تعلوه طبقات مدرجة من الزلط عظيمة الارتفاع والسمك يبلغ عرضها نحو عشرة كيلو مترات شمال بحر يوسف ثم تضيق فى الجنوب إلى كيلو مترين ونصف شرق الغرق ويقطع هذا البرزخ فى أربعة مواضع فى الشمال الغربى من طمية وشرق سيلا وفى المنطقة التى تخترقها السكة الحديدية وبين اللاهون وهواره حيث يدخل بحر يوسف الفيوم وجنوب قلمشاه .

ويتصل منخفض الفيوم بوادى النيل بمنفذ طبيعى ضيق يجرى فيه بحر يوسف الذى يبدو بما حوله من الأراضى الزراعية كشريط ضيق ينفذ منه الماء فتظهر المديرية كأنها ورقة نبات تكاد تكون مستديرة ولها عنق يتصل بوادى النيل عند بحر يوسف من ابتداء مدخله عند اللاهون وتتكون عروقها من الترع والخلجان والقنوات التى تتفرع داخلها .

وتتكون الأراضى الزراعية فى منخفض الفيوم بحسب وضعها وشكلها من ثلاث مساطب وهى الأراضى التى تكونت من طمى النيل وموقعها بين المصرف العمومى القبلى (وادى البركة) والمصرف العمومى البحرى الشرقى (بحر بلاما أو وادى طمية) .

وتنحدر أرض الفيوم فى الثمانية كيلو مترات الأولى فى اتجاه بركة قارون بنسبة ١ إلى ١٤٠٠ وفى الأربعة الكيلو مترات التالية بنسبة ١ إلى ٦٦٠ ثم بنسبة ١ إلى ١٥٠ لغاية بركة قارون التى مستواها الآن ٤٥ متراً تحت سطح البحر .

طبيعة أراضى منخفض الفيوم : منخفض الفيوم بحسب تركيبه ثلاثة أقسام : أراض زراعية وأراض صحراوية وبحيرة . أما الأراضى الزراعية فمساحتها حوالى ١٨٠٠ كيلومتر مربع أى نحو سدس مساحة المنخفض كله وتبلغ مساحة ما يروى منها الآن ٣٤٦٫٧٠٠ فدان منها ٢٧٠٫٠٠٠ فدان متصلة بالمصارف العمومية ومنها ٥٥٩٣ فداناً حدائق فاكهة .

وتقع الأراضى الزراعية فى الجهات المنخفضة من المديرية وتنحصر فى الأراضى المكسوة بطبقات الرواسب الطمية النيلية .

نوع الارض : ليس فى القطر المصرى مديرية فيها من الاختلاف فى طبيعة الأرض ما فى مديرية الفيوم فهى تمثل بحق كافة أنواع الأراضى من حجرية إلى رملية خشنة وجيرية وصفراء خفيفة وطينية وطمية وملحية وسبخة وقد لاحظ ذلك كتاب العرب فقد روى النابلسى الصفدى الشافعى سنة ٦٤٢ هـ أن صقع الفيوم مختلف التربة ما بين الأبليز المحض والطين المختلط بالرمل الذى لا يمنع الزرع ويسمى « الدملوف » والرمل المشوب بالحصا الذى لا ينبت فيه شجر ولا زرع .

وفى المديرية مساحات كبيرة من أراض أخرى تصلح للزراعة وهى واقعة فى الجهات الشمالية والغربية والشمالية الغربية . وقد تكونت فى الأصل من رواسب بحيرة موريس من رمل وطين رملى وطين عليها طبقات رقيقة جداً من الطمى الذى دفعه بحر يوسف ومن الرمال التى تسفوها الرياح وتوجد أسمك الطبقات الرملية بالقرب من شواطئ البحيرة القديمة وإلى جانبها الطبقات الجيرية أما الرواسب الطينية الحقيقية فقد تجمعت على مسافة من شواطئها .

الوديان المتصلة بالفيوم : بجوار منخفض الفيوم منخفضان آخران هما وادى الغرق ووادى الريان ويتصل وادى الغرق بمنخفض الفيوم بمضيق منسوبه ١٦ متراً فوق سطح البحر . ومساحته خمسة وثلاثون ألف فدان يزرع منها الآن تسعة آلاف فدان والباقى أراض سبخه ومستنقعات وصحراء سيصرف منها عشرون ألف فدان فى مصرف الوادى .

ويقع وادى الريان بجوار وادى الغرق ومساحته نحو ربع مساحة منخفض الفيوم وتحيط به تلال ترتفع عن سطح البحر بمقدار ٣٦ متراً إلا فى موضعين فى التلال التى تفصله عن وادى الغرق فارتفاعهما ٢٦ و ٢٧ مترا فوق سطح البحر .

العيون الطبيعية فى الفيوم : بالفيوم مجموعتان من العيون المتفجرة الطبيعية تشمل الأولى ست عيون منها ثلاثة فى الشمال الغربى قرب طمية واثنتان قرب فتحة

الوادى والأخيرة فى الطرف الغربى قرب قصر قارون والمجموعة الثانية تشمل سبع عشرة عيناً موزعة فى جهات جبالة والسيليين والفيديمين والعجميين وابشواى .

بحيرة الفيوم « بركة قارون » : كانت هذه البحيرة فى عصور ما قبل التاريخ تملأ منخفض الفيوم أى المديرية بأجمعها وقد سماها الأغريق ببحيرة موريس نسبة إلى الملك موريس أو أمنمحت الثالث الذى زعموا أنه جعل منها خزاناً لمياه فيضان النيل وقد سماها العرب كما جاء فى كتاب النابلسى الصفدى الشافعى « ببركة الصيد أو بركة السمك » أما الآن فتسمى « ببركة قارون أو بركة القرون » لوجود صخرة عظيمة تبرز كالقرن فى شاطئها الجنوبى . وهى المصرف الوحيد لمياه مديرية الفيوم عدا حوض الغرق .

وكان منسوب مائها فى العصر الحجرى القديم من ٤٢ إلى ٤٤ متراً فوق سطح البحر وكانت مساحتها ٢٢٥٠ كيلو متراً ولكنها أخذت فى الانكماش على توالى الزمن إلى أن أصبح منسوبها الآن ٤٥ متراً تحت سطح البحر أى أنها هبطت ٨٨ متراً فانكشفت بذلك شواطئها الرملية المكسوة بالرمل والزلط التى لا تزال ترى إلى اليوم دالة على مسطحاتها فى مختلف العصور .

ويلاحظ أن انحطاط مياهها ليس مستمراً طول السنة بل إنه يبدأ فى شهر مارس وتستمر فى الانخفاض إلى اكتوبر ثم يأخذ فى الارتفاع من أول نوفمبر إلى آخر يناير ويصبح بحالة واحدة طوال شهر فبراير .

ولا يزال فلاحو الفيوم يستخرجون الملح من شواطئها القديمة التى أرضها الآن على منسوب + ٢٠ إلى + ٢٢ متراً فى المنطقة المسماة « جسر الحديد » أى جسر السكة الحديدية وقد أنشئت على شواطئ هذه البحيرة معظم المدن المصرية القديمة .

وقدر منسوبها فى أواخر العهد الرومانى بمقدار ١٥ و ١٧ متراً تحت سطح البحر وقد عثر على بك الشافعى صاحب كتاب « رى الفيوم » على موردة لقرية « قوته » بها خزان صغير من الآجر على طراز خزانات الماء الرومانية شمال كوم اوشيم كان يملأ من الترعة الرومانية الواقعة على بعد خمسة كيلو مترات إلى الجنوب .

وقدر منسوبها فى سنة ٦٤٢ هـ بثلاثين وإلى ثمانية وعشرين متراً تحت سطح البحر وفى عهد محمد على أى فى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى بأربعين متراً تحت سطح البحر أما الآن فلا يعطى لها منسوب أقل من خمسة وأربعين متراً تحت سطح البحر وذلك لصالح مصائد الأسماك .

وروى النابلسى أن بركة الصيد فى زمنه وهى بركة قارون الحالية كانت مصرفاً لمياه الفيوم وكانت تصل إليها مياه الفيضانات العالية فإذا خافوا على الفيوم من الغرق فتحوا لها قنطرة ذات بابين بين صنوفر وقشوش تصب فى محتفر البطس فإذا لم يكف ذلك أزالوا الأتربة من فوق سد مبنى يقابل دموشيا بالجسر الأيمن لبحر يوسف فتنصب منه المياه إلى منخفض البطس . وكان عند هوارة البحرية قنطرة قديمة محكمة البناء اندثرت فكان يخرج منها الماء أضعاف ما يخرج من الفتحات السابقة وكان يدوم جريان الماء فى البحيرة شهرين عندما تصل إليها مياه بحر الفيوم وذيله وكانت هذه المياه لا تؤثر فى البحيرة سوى غرق بعض المزارع الواقعة على شواطئها .

وكانت مياهها حتى سنة ٦٤٢ هجرية على درجة من العذوبة تسمح بتوالد الأسماك النيلية فيها فكانوا يصطادون منها السمك البولطى ويحملونه على الدواب ليبيعوه فى أسواق القاهرة وكانت الأسماك فى زمن الفيضان تهاجر منها بكميات عظيمة إلى الخلجان الصاعدة إلى بحر يوسف ، فيصطادونها عند المقاسم والقناطر ويبيعونها بأثمان بخسة بسعر القنطار ثمانية دراهم ونصف . وكان فيها عدا البولطى أصناف القرموط واللبيس والشال . وكان فيها ثلاثون قارباً للصيد وعلى شواطئها موانئ للصيد اندثرت نذكر منها منية أقنى وسنهور والطارمة ومنية البطس ، وقد كانت الأراضى الواقعة على شواطئها تروى من مياهها العذبة بالسواقى فاندثرت ولم يبق منها سوى ساقية واحدة فى سنة ٦٤٢ هجرية .

تكوين بحيرة موريس ومديرية الفيوم : إن تاريخ تكوين مديرية الفيوم مرتبط بتاريخ تكوين بحيرة موريس وما طرأ على منسوبها من التغير وعلى أرضها

من الإصلاح فى شتى عصور التاريخ ويمكننا أن نتكلم عن تكوين البحيرة وما طرأ عليها فى عهدين طويلين ، العهد الجيولوجى والعهد الحديث . ففى العهد الجيولوجى كان البحر المالح يغمر جميع القطر المصرى بما فيه الفيوم فى العهد البليوسينى ثم أخذ قاع البحر يتجمد إلى أن استحال إلى أرض كثيرة الارتفاعات والمنخفضات فتكون نتيجة ذلك وادى النيل ومنخفضا الفيوم ووادى الريان ثم أخذ وادى النيل يتكامل بما يرسب فيه من الطمى الذى تحمله مياهه .

وكانت مياه النيل فى الزمن الغابر تحبسها صخور عالية لم تلبث أن تآكلت وتآكل معها قاع النيل بتأثير مياهه المتدفقة فانخفض مجراه عما هو عليه الآن . وكانت الدلتا مغمورة بالبحر إلى أن تكونت أرضها برواسب النيل فارتفعت وارتفع معها قاع النيل بسبب رواسبه حتى وصل إلى مستواه الحالى فى حبوسه السفلية .

وفى العصر البلستوسينى أخذ مجرى النيل ينخر أرض البرزخ الفاصل بين وادى النيل وبين منخفض الفيوم فتمكنت مياهه من شق منفذ لها إلى هذا المنخفض فكونت منه بحيرة حلوة ازدادت اتساعاً بازدياد تدفق ماء النيل فيها حتى ملأت منخفض الفيوم إلى مستوى المجرى الذى تتدفق منه مياه النيل وأخذت آلاف الأطنان من طمى النيل ترسب كل عام فى أرض البحيرة بشكل مروحة ثم انخفض مستوى النيل فيما بعد فانفصل عن الفيوم ولكنه عاد فارتفع فى أوائل العصور التاريخية القديمة بسبب ما تراكم فى مجراه من رواسب الطمى فاتصل ثانياً بالفيوم .

ومن الأدلة القاطعة على وجود بحيرة حلوة عظيمة تملأ منخفض الفيوم فى العصر البلستوسينى وعصر ما قبل التاريخ وجود طبقات الرمل وطمى البحيرة فى مساحات كبيرة فى الصحراء الشمالية والغربية للفيوم على ارتفاعات أعلاها ٢٢ و ٢٣ متراً فوق سطح البحر .

ولا جدال فى أن بركة قارون الحالية ما هى إلا البقية الباقية من البحيرة القديمة الحلوة أى بحيرة موريس التى وضعها قدماء المصريين تحت تصرفهم بالوسائل الصناعية .

ويحتوى الطمى المحيط بالبحيرة القديمة على عظام أسماك نصف متحجرة من نفس أنواع السمك التى تصطاد إلى اليوم فى بركة قارون كما أنه وجدت بقايا حيوانات من أفراس البحر والفيلة وقرود البوبال والأغنام والماعز وفصيلة ابن آوى والتماسيح والسلاحف .

ويوجد ما يدل على أن جو الفيوم ومصر كان فى العصور الجيولوجية القديمة أكثر رطوبة وألطف حرارة مما هو عليه . ويقول بلانكنهورن : إن النيل اتصل بمنخفض الفيوم فى أواخر العهد الجليدى الأوربى .

أما العهد الحديث : فيشمل عصر ما قبل التاريخ والعصور التاريخية .

أما عن عصر ما قبل التاريخ فتدل الآلات الحجرية الظرانية الكثيرة التى عثر عليها فى الصحراء الواقعة فى منطقة البحيرة القديمة أن شواطئها كانت مأهولة بأقوام يستعملون هذه الآلات . وكانت شواطئ البحيرة وقتئذ مكسوة بغابات كثيفة من أشجار الأثل والعبل التى لا تزال جذورها وجذوعها مدفونة بحالة جيدة جداً فى الأراضى الطينية المكونة لشواطئها .

ويمكننا أن نحكم من دقة صنع هذه الآلات وجمالها أنها من صنع الإنسان النيوليثي الذى كان يعيش فى العصر الحجرى الحديث ، وأن سكان هذه المنطقة استعملوها عندما كانت البحيرة فى أعلى منسوبها . ولاشك أن هذه الآلات أقدم من مثيلاتها التى استعملها سكان وادى النيل بمصر .

أما عن الحالة فى العصور التاريخية فالثابت أن النيل كان يتدفق إلى منخفض الفيوم وقت الفيضان وكان يرسب منه فى مياه البحيرة كميات عظيمة من الطمى فى كل عام فتكون طبقات فوق طبقات رواسب البحيرة الأصلية وبذا أخذ قاع البحيرة يزداد سمكا وارتفاعاً إلى أن تكون فى وسطها أراض قليلة الغور على شكل مستنقعات وأخذت الأرض تظهر فى عهد الدولة القديمة فبدأوا فى زراعتها واستيطانها .

ويعزو المؤرخون استعمار الفيوم إلى امنمحعت الأول من العائلة الثانية عشرة (حوالى سنة ٢٥٠٠ ق م) الذى كان مولعاً بصيد الأسود والتماسيح لذلك يحتمل أنه انتخب أكثر المواقع بروزاً فى أرض البحيرة ومنسوبها ٢٢٫٥ متراً فوق سطح البحر وموقعها بين اللاهون ومدينة الفيوم الحالية وكيمان فارس فجففها وأصلحها وكانت مساحتها حوالى عشرة آلاف فدان ثم بنى فيها قصراً فخماً وبستاناً وجعلها مقراً لنزهته ليتمتع بهواء الصحراء الملطف بجو البحيرة وليصطاد فيها التماسيح وتبعه فى ذلك الأمراء والعظماء فنشأت مدينة عظيمة سميت « شيد » أى المستخلصة .

وكان بسواحل البحيرة وشواطئ الترع التى توصلها بالنيل أراض متسعة سهلة الرى لابد وأنها كانت تزرع فى ذلك الزمن .

وقد اقتفى سنوسرت الأول أثر سلفه فى إصلاح أرض الفيوم . ولما كثر توافد الناس على مدينة شيد وازداد عددهم لمسوا الحاجة إلى التوسع فى المساحات المزروعة حول البحيرة . كما أن مياه البحيرة كانت تصل إلى ساحل مدينة شيد فى وقت الفيضان وتنحسر عنه إلى مسافة كيلو مترين وقت التحاريق فيبعد مرسى السفن ويصعب شحنها وتفريغها ويزيد ذلك صعوبة وعورة ما ينكشف من ساحل البحيرة عند نزول النيل . لذلك أنشأ أمنمحعت الثالث (وهو المعروف بالملك موريس) جسراً من الأراضى الواقعة شرق العدوة وآخره بهمو ومنها إلى المدينة ويمتد هذا الجسر إلى الكلابين ثم إلى السيليين فالفيديميين ثم إلى نقطة بحرى سنرو ثم ينحنى جنوباً (ويقطع سكة حديد أبو كساه) عند منتصف المسافة بين العجميين وأبشواى (أبو جنشو) حيث توجد الآن آثار عظيمة لمدينة قديمة وقد بلغت الأراضى المستصلحة بهذا الجسر مساحة طولها عشرون ميلا ومساحتها حوالى ٢٧ ألف فدان .

والملك موريس أى امنمحعت الثالث هو بحسب أقوال المؤرخين صاحب الفضل الأول فى استعمال بحيرة موريس خزاناً لتخزين مياه الفيضان والتحكم فى تصريفها إلى النيل وقت التحاريق وقد أقام تمثالين عظيمين على الجانب الجنوبى للبحيرة ليكونا خير شاهد على عمله الجبار وكان طول التمثال أربعين قدماً غير قاعدته ولا تزال

آثارها باقية إلى اليوم عند بيهمو كما أنه شيد قصر لابيرانطة ذى الشهرة التاريخية الذائعة الذى وصفه هيرودوط قائلا إن فيه اثنى عشر فناء وثلاثة آلاف حجرة وعدداً كبيراً من الردهات .

وقد بلغت الفيوم أوج عظمتها على يد البطالسة عندما حولوها إلى مستعمرة نضرة لجنودهم من الإغريق المقدونيين ، فاستعان كل من بطليموس الأول والثانى بالفنون الهندسية فى إصلاح أراضيها فخفض مسطح البحيرة إلى نصفه ثم زرعت و بنى بطليموس فيلاديلفوس مدينة أرسينوى قرب مدينة التماسيح القديمة وقد سماها باسم أخته التى تزوجها ومكانها كيمان فارس .

وقد أنشأ البطالسة مئات من البلدان العامرة مثل ثيادلفيا وفيلوتيريس و بوهيميريا وديونيسياس و با كياس وسكنو بايوس نسوس . ولا تزال أطلالها قائمة إلى اليوم حتى لقد تغالوا فى القول بأن عدد بلدان إقليم الفيوم بلغ ثلثمائة وستين بلداً وكان محصول كل بلد يكفى لتموين الديار المصرية يوماً كاملا أى أن مديرية الفيوم كانت قادرة على تموين القطر كله عاماً كاملا وهذا مبالغة فيما وصلت إليه هذه المديرية من العمارة والخصب فى عهد البطالسة .

وما « كوم أوشيم » الحالى سوى بلدة كرانيس التى بناها الرومان فى القرن الثانى أو الثالث الميلادى لتكون مقراً محصناً لجنودهم وقد كشفت عنها بعثة جامعة مشيغان الأمريكية فعثرت فى أطلالها على أوراق من البردى وهيكل للمعبودين المحليين بنيفيروس و بتيسوكوس .

وقد ذكر النابلسى فى سنة ٦٤٢ هجرية خمسة وثلاثين بلداً واقعة على بحرى وردان وتنبطويه أى بحر الغرق وكلها كانت دائرة فى زمنه .

وقد حل بالفيوم ما حل بغيرها من الحدثان فأهمل أمرها ودثر كثير من بلادها الواقعة فى مناسيبها العالية كما يستدل مما كتبه النابلسى سنة ٦٤٢ هجرية إذ قال فى ذكر مزاجها إنه يغلب عليه اليبس والحرارة وقد قال إن كثرة ماء الفيوم جعلت مزاجه مع رداءته رطباً فى الجملة فأثر على سكانه وطباعهم فأصبحوا يميلون إلى

الوحشة والانفراد ثم قال إن هواء الفيوم ردىء لأنه محاط بالأبخرة الرديئة المتصاعدة من أرضه والعفونة المتفشية منه لأن أكثر الفيوم كان فى زمنه آجاماً وأفصاباً وهيشاً ومحاطب فى خلجانه وكان على الخليج نبت كثير وأشجار لذلك صدق من نعت الفيوم « بأسفل الأرض » ثم وصف ماءه فقال إنه ردىء لأنه يمر على نقائع وبقايا من أرضه فى بطائح ينزل عنها أيام نزوله ويتعفن فيها الحيوان على اختلاف أنواعه . لذلك عمل الملك الصالح أيوب على إصلاح الفيوم فأكثر من خلجانها وطهرها فانكشفت مياهها للشمس وسرت فيها حركة دائمة بسبب تطهيرها من الأعشاب فحسنت وطابت وبالرغم مما وصفه بها النابلسى فإنه كان يزرع منها فى عهد الأثوبيين ٢٩١٠٠٠ فدان .

الرى والصرف فى مديرية الفيوم فى مختلف العصور : تستمد مديرية الفيوم مياهها من النيل بواسطة بحر يوسف وهو مجرى طبيعى أى غير صناعى كونته مياه الفيضان التى كانت تنحدر فى الأراضى المنخفضة فى الجزء المنخفض من وادى النيل بجوار الصحراء الغربية المصرية إذ أن الأراضى المجاورة بسواحل النيل مرتفعة ثم تأخذ فى الانحدار كلما بعدت عن مجراه إلى أن تنتهى بسلسلة التلال المحيطة بالوادى أى بحافتى الصحراوين الشرقية والغربية .

وقد حفر قدماء المصريين قناة صناعية توصل بحر يوسف وجدت آثارها قرب ديروط على بعد ٢٠٠ كيلومتراً من اللاهون .

ويتفرع بحر يوسف داخل الفيوم إلى ترع ذات منسوب عال لرى الأراضى العالية المجاورة لبحر يوسف وأخرى متوسطة المنسوب وأخرى طويلة عميقة لرى الأراضى البعيدة التى منسوبها تحت عشرة أمتار وتروى الأرض الواقعة فى الحبوس الفوقانية بالسواقى الماشية ، أى سواقى الهدير ، وهى على نوعين الأولى ترفع المياه بواسطة قواديس من الفخار مربوطة على طارة خشبية مستديرة . والثانية عبارة عن توابيت خشبية مقسمة إلى عدة علب ذات فتحات لاستقبال المياه وتحت كل علبة صندوق من الخشب ينصب فيه الماء ويخرج منه إلى الأرض المراد ريها

وفى كلا النوعين من هذه السواقى يفقد جزء من الماء أثناء رفعه . وسواقى المواشى العادية قليلة بمديرية الفيوم ولا تستعمل إلا فى المساحات الصغيرة ولم تتغير حالة الرى فى الفيوم طوال عصور التاريخ . فالفيوم من أقدم الأراضى المصرية التى رويت رياً دائماً لأكثر من ألفى سنة . فشواطئ بحر يوسف تروى رياً دائماً من عهد قدماء المصريين .

ويؤخذ مما حدثنا به النابلسى الصفدى فى كتابه عن الفيوم فى سنة ٦٤١ هجرية وما كتبه فى ذلك على بك الشافعى أن نظام الرى فى عهد الدولة الأيوبية يماثل إن لم يفضل فى بعض النقط نظام الرى الحالى إذ كان لكل قرية خليج خاص بها ومقسمها وهو ما يسمى اليوم نصبتها مقيس بما يعادل أقل من المليمتر . وكانت السفن تجرى من النيل إلى الفيوم عن طريق ترعة المجنونة إلى اللاهون ثم تمر فى فتحة عميقة فى الجدار اليوسفى إلى بحر يوسف ومنه إلى الفيوم لأن قنطرتى اللاهون لم تكونا قد شيدتا بعد .

ويقول النابلسى إن بحر يوسف كان يأخذ من النيل عند قرية ذروة سريام وهى ديروط الحالية جنوبى الأشمونين .

وكان إقليم الفيوم يروى أما سيحا من الخلجان أو برفع الماء بالسواقى أو بسواقى الهدير بينما كانت أرض قرى اللاهون وهوارة البحرية وكوم درى وديمشقين تروى بالحياض .

وكان بحر يوسف يستمد ماءه من النيل فى الفيضان أما فى الشتاء فكانت لا تدخله مياه النيل قط فلا يصل إلى الفيوم فى الشتاء غير مياه الرشح وكان يتفرع منه بحران هما بحر وردان القديم وبحر تنبطويه وهو المعروف الآن بترعة الغرق . ولكن الرمال قد ردمتهما بما سفا منهما فى أحباسهما السفلية وكانت الأراضى التى تروى منهما أقل مما كانت فى عهد البطالسة والرومان يدل على ذلك البلدان التى دثرت وقد عدد منها النابلسى خمسة وثلاثين بلداً كقرية بنديق فى نهاية بحر وردان وقرى أم الأثل ووشيم (كوم وشيم) وديمية ودار الضرب (قصر الصاغة الحالية) .

أما بحر تنبطويه (بحر الغرق) فكان يروى لغاية قطون ومقران وكانت أرض منخفض الغرق مستنقعات مهملة وقد ذكر النابلسى أن بحر الغرق كان يروى قرى دقلوه ومسجد عائشة غرب الحنبوشية (النزلة) وكان عليه عدد كبير من البلاد التى كانت عامرة فى عهد البطالسة والرومان ثم اندثرت مثل أهريت وبرج توت واقنى وأم السباع وحدادة فقد عثر فى إطلالها على أوراق من البردى تضم أسماء الفلاحين من أهلها وكلها أسماء إغريقية كافروديت وديدمونة وهرقل وإيزيدور .

وكانت تصرف المياه فوق عتب الجدار الواقع على البحر اليوسفى عن طريق ترعة المجنونة وذلك بسبب ما رسب من طمى النيل أمام هذا الجدار وكانت حدود الفيوم فى عهد الأيوبيين عند سدمنت وهى الآن من أعمال مديرية بنى سويف وكان للبحر قنطرة كبيرة تصرف الزائد من مائه وأخرى أصغر منها عند قشوش وكلاهما متصل بالبطس ومنه إلى بركة قارون .

وكان الأهالى إذاك يحاولون بوسائل أولية زيادة تصرف بحر يوسف بدون جدوى بل كان ينشأ عنها أضرار .

ويقول النابلسى إنه كان يتفرع من بحر يوسف فى زمنه ثلاثون ترعة من جانبه الأيسر وثمانية وعشرون من جانبه الأيمن وإن مياهه كانت ترفع إلى الأراضى لريها بالسواقى التى عددها ٢٤٢ ساقية كان يدور منها فى سنة ٦٤١ هجرية ١٢٠ ساقية والباقى كان متعطلا وكانت على تلك الترع ست معاصر للقصب وطاحونتان للغلال تدار كلها بقوة الماء .

وقد تعرف على بك الشافعى على جميع هذه الترع فحدد مواقعها ورسمها فى خريطة خاصة فى مؤلفه عن رى الفيوم جاءت آية فى الدقة واستعان فى ذلك بخريطة عملها لينان بك فى عهد محمد على باشا وهى محفوظة الآن بدار الكتب المصرية ، وقد أرشدته مس جاردنر إلى موقع بحر تنبطويه (بحر الغرق) فخططه .

النقاطر والمقاسم فى الفيوم فى عهد الدولة الايوبية وبعدها : وكان يوجد سد كبير يعترض الأراضى الزراعية بين اللاهون وجبل أبو صير يسمى بالحجر

اليوسفى أو الجدار اليوسفى يصرف ما يزيد عن حاجة المديرية عن طريق ترعة المجنونة الحالية وقد وصف هذا الجدار المقريزى نقلا عن دستور أبى إسحاق بن جعفر المتوفى سنة ١٠٣١ ميلادية وكان مجموع طول هذا الجدار ٧٧٠ ذراعاً وكان ضمنه قنطرة قديمة ذات عشر فتحات مبلطة بالحجر وكانت وظيفة هذا الجدار رد الماء حتى درجة ١٢ ذراعاً إلى الفيوم وما زاد عن ذلك يصرف إلى النيل من فوق عتبه وكان بهذا الجدار منافذ أى برانخ من الزجاج الأزرق والسليمانى .

أما قنطرة اللاهون القديمة فقد شيدها الملك الظاهر بيبرس البندقدارى الذى حكم مصر من سنة ١٢٦٩ إلى ١٢٧٧ ميلادية كما جاء فى الخطط التوفيقية .

وقد زار علماء الحملة الفرنسية هذه المنطقة و بصحبتهم المملوك المسمى سليمان كاشف فقرأ ما كان على أحجارها من النقوش وهى تفيد بأن الذى بنى القنطرة هو السلطان سليمان بن محمد فى القرن السادس الهجرى .

وفى حكم محمد على باشا شيد لينان بك القنطرة الجديدة فى سنة ١٨١٩ وتوجد بين اللاهون قنطرة قديمة تصرف مياه بحر بلاما أمام هوارة المقطع ولم تكن هذه القنطرة مستعملة فى عهد محمد على باشا .

وصف عام لنظام رى الفيوم الحالى : تروى الفيوم الآن رياً دائماً لأنها داخلة ضمن منطقة الترعة الابراهيمية التى طولها ٢٩٥ كيلو متراً وهى أطول ترعة صناعية فى القطر المصرى .

وقد أنشأ الترعة الابراهيمية المهندس المصرى العظيم بهجت باشا فى سنة ١٨٦٧ لرى أراضى إسماعيل باشا الخديو التى أعدها لزراعة قصب السكر . وجعل فمها عند أسيوط على بعد ٣٠ كيلو متراً أمام منفلوط و ٦١ كيلو متراً أمام ديروط وأنشئت بديروط قناطر لتقسيم المياه ومن ضمنها قنطرة جعلت لبحر يوسف الذى أصبح بهذا الوضع فرعاً لترعة الابراهيمية .

والأفرع الرئيسية الآخذة من بحر يوسف هى بحر وردان وبحر الغرق وبحر النزلة ويتغذيان الآن من بحر حسن واصف .

وتوزيع المياه فى الترع بواسطة المقاسم أى النصب حيث أعتاب الفتحات على منسوب واحد وعرضها بنسبة الزمام الذى يتغذى منها وتوزع المياه من المقاسم بدون تدخل خارجى .

والمنطقة المرتفعة من المديرية هى التى منسوبها فوق ٢٢ متراً فوق سطح البحر وهى تروى بالراحة من سواقى الهدير المركبة على الترع فى أحباسها العلوية .

وتستعمل أغلب مساقط المياه فى إدارة طواحين الغلال وقد استعاض عنها على بك شافعى كما ذكر فى مؤلفه عن رى الفيوم بالتربينات الصغيرة (طراز فرنسيس) المصنوعة بأحد مصانع الفيوم فبلغ محصول الجودة بها ٧٥ ٪ بعد أن كان ١٠ — ١٥ ٪ فى الطواحين القديمة . وسواقى الهدير تعطى تصرفاً فى الصيف عندما تكون المياه شحيحة أكثر مما تعطيه فى الشتاء وينصح الشافعى بك بعدم تشجيعها لأن أصحابها يبددون ماءها فيخلون بتصرف الترع .

الصرف فى الفيوم ووادى الغرق : تصرف أغلب أراضى الفيوم صرفاً جيداً ولن يبقى منها سوى القليل بدون صرف عندما يتم مشروع صرف الغرق وبالفيوم مصارف أوطى من أرض الزراعة بما لا يقل عن ٢٥ متراً وكل المصارف تصب فى بركة قارون .

أما مشروع صرف الغرق فسيصرف منخفضاً من الأرض غير متصل بالمصارف تبلغ مساحته ٢٠ ألف فدان أنشئت له محطة كهربائية يديرها تربين على مصرف الوادى حيث يوجد سقوط قدره ٢٥ متراً وسترفع مياه الصرف بواسطة ثلاث طلمبات مجموع رفعها ١٥ متراً إلى مصرف الوادى .

الحالة الزراعية فى الفيوم : لقد بلغت الزراعة فى الفيوم فى عهد البطالسة مبلغاً عظيماً من التقدم وقد حافظت على سمعتها رغم ما اندثر من بلادها إلى سنة ٦٤٢ هـ . إذ قدرت مساحة الأرض المزروعة منها إذ ذاك بنحو ٢٩١٠٠٠ فدان من الزراعات الصيفية والنيلية والشتوية وقد بلغت مساحة القمح فى عهد الأيوبيين ١٤٤٨٠٠ فدان ى ما يقرب من نصف المساحة المزروعة .

وكانت الدورة الزراعيـة فى الفيوم ثنائيـة وكان الشعير والفول يشـغلان ثلث مساحـة الأرض الزراعيـة و بلغت مساحة قصب السـكر ١٦٥٠٠ فدان والأرز ٣٠٠٠ فدان والباقى وهو سدس الأرض كان يزرع سمسما وكتاناً وكموناً وحبوباً زيتية وخضروات وأشجار فاكهة ونباتات الزينة فقد كانت الفيوم تمد القطر المصرى بأجود أصناف الفاكهة كالكمثرى والتفاح المخضب و بلغ مقدار ماتخرجه فى العام من القطن ٤٤٠ قنطاراً .

أما مساحة ما يروى من أراضى الفيـوم الآن فيبلغ ٣٤٦٧٠٠ فدان منهـا ٥٥٩٠ فداناً من بساتين الفاكهـة ويصرف من هذا الزمام فى المصارف العمومية ٢٧٠٠٠٠ فدان ولا تزال تنشأ مصارف جديدة فى كل عام .